﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من تقرير خصوص أمر الرزق إلى عموم أمر الخلق

لمّا ذَكَر في الآيات السّابقة حالَ المشركين وإعراضَهم واستهزاءهم، وأتْبَعَه بجزاء المؤمنين وحثِّهم على الهجرة وبيانِ تكفّله بشأن الرّزق، أتبعَ ذلك بتقرير كونِهِ الخالقَ الرّزاقَ الواحدَ، وأنّ المشركين أنفسهم لا يُكابرون في ذلك، بل يعترفون ويُقرّون، فتكون الآية مؤكّدةً على حثّ المؤمنين للهجرة، ومبيِّنةً حالَ الكافرين من التّناقض.

ومن المناسبة ما ذكره الفخر الرّازيّ: "لما بَيَّن الله الأمر للمشرك مخاطبًا معه ولم ينتفع به وأعرض عنه، وخاطب المؤمن بقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وأتمّ الكلام معه، ذكر معه ما يكون إرشادًا للمشرك بحيث يسمعه، وهذا طريق في غاية الحُسْن، فإنّ السّيد إذا كان له عبدان، أو الوالدَ إذا كان له ولدان وأحدُهما رشيدٌ والآخر مفسدٌ، ينصح أوّلًا المفسد، فإنْ لم يسمع يقول مُعرِضًا عنه، ملتفتًا إلى الرّشيد: إنّ هذا لا يستحقّ الخطاب، فاسمَعْ أنت ولا تكن مثل هذا المفسد؛ فيتضمّن هذا الكلام نصيحةَ المصلح وزجْرَ المفسد"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَخَّرَ﴾: (سخر) أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى احْتِقارٍ واسْتِذْلالٍ؛ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُنا: سَخَّرَ اللّهُ ﷻ الشَّيْءَ، وذَلِكَ إذا ذَلَّلَهُ لِأمْرِهِ وإرادَتِهِ[2]، والسُّخْرَةُ: ما تسَخَّرْتَ مِنْ دابَّةٍ أو خادِمٍ بِلا أجر ولا ثَمَنٍ، ويُقالُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 73، وينظر: المراغي، تفسير المراغي: 21/ 17.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).

سَخَرْتُه بمَعْنَى سَخَّرْتُه، أي: قَهَرْتُه وذَلَّلْتُهُ، وسَخَّرَهُ تَسْخيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بلا أُجرة، وسخَّره يُسَخِّرُه سِخْريًّا وسُخْريًّا وسَخَرَه: كَلَّفَهُ ما لا يُريدُ وقَهَرَهُ، وكُلُّ مَقْهورٍ مُدَبَّرٍ لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ما يُخَلِّصُهُ مِنَ الْقَهْرِ، فذَلِكَ مسخَّر[1]، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغرض المختصّ به قَهْرًا، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 13]، فالْمُسَخَّرُ هو المقيّض للفعل[2]، وقوله تَعالَى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: ذَلَّلَهُما.

2) ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: (أفك) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى قَلْبِ الشَّيْءِ وصَرْفِهِ عَنْ جِهَتِهِ؛ يُقالُ: أُفِكَ الشَّيْءُ، وأفِكَ الرَّجُلُ: إذا كَذَبَ، والْإِفْكُ: الْكَذِبُ، وأَفَكْتُ الرَّجُلَ عَنِ الشَّيْءِ: إذا صَرَفْتَهُ عَنْهُ[3]، والأَفْكُ، بِالْفَتْحِ: مَصْدَرُ قَوْلِكَ أَفَكَهُ عَنِ الشَّيْءِ يَأْفِكُه أَفْكًا صَرَفَهُ عَنْهُ وقَلَبَهُ، قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: 9]؛ أي: يُصْرَفُ عَنِ الإيمان مَنْ صُرِف، كما قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: 22]، أي لِتَصْرِفَنا وتَصُدَّنا، والأفّاك: الَّذي يَأْفِكُ النّاسَ أي يَصُدُّهُمْ عَنِ الْحَقِّ بِباطِلِهِ[4]، والإفك: كلُّ مصروف عن وجهه الذي يَحقُّ أن يكون عليه، ومنه قيل للرّياح العادلة عن المهابّ: مُؤْتَفِكَة، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ [الحاقة: 9]، وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: 30] أي: يُصْرَفونَ عن الحقِّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصِّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[5]، والمقصود في الآية: أي كيف يُصرفون عن التّوحيد والأدلّةُ عليه قائمةٌ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

شرعتِ الآية الكريمة بالقَسَم، مخاطبةً سيِّدَ الخلقِ ﷺ: إنْ سألتَ المشركين عن الخالق الذي أوجد السّماوات وما فيها من الكواكب النّيّرات، وأبدع الأرض وما حوته من كنوز ومعادن، وذلّل الشّمس والقمر، فجعلهما يجريان لمصالح الخلق، فتعاقب اللّيل والنّهار، لو سألتهم عمّن فعل ذلك لأجابوا بأنّ الخالقَ الموجدَ هو الله ﷻ، ولن يكون جوابهم إلّا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سخر).
(2) الراغب، المفردات: (سخر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(5) الراغب، المفردات: (أفك).
(6) الواحدي، البسيط: 17/ 554.

الاعتراف والإقرار لعلمهم بأنّ الله تعالى وحده هو الفاعل لذلك؛ فكيف يُصرفون عن توحيد الله وإخلاص العبادة له؟! فمقتضى الاعتراف أن يمتنع المشركون عن عبادة غيره، وهكذا يظهر تناقض المشركين واضطرابهم في الجمع بين الاعتقاد والسُّلوك.

تناقضُ الاعتقادِ مع السُّلوك دليلُ الانصراف عن الحقِّ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

افتتح النّظم الجليل الآية بالواو الاستئنافية[1]، فالجملة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مستأنفة لبيان ما كان عليه مشركو العرب من التّناقض في أفكارهم ومعتقداتهم، فعجّب من تناقضهم ذلك؛ وذلك ببيان اعترافهم بأن خالق هذا الكون على جهة الانفراد هو الله مع أنّهم يشركون بعبادته[2]، أي: هم كفروا بالله.

الكشف عن تناقض المشركين في اعتقادهم في الألوهيّة والخالقيّة

"وإن سألهم سائل عمّن خلق السماوات والأرض يعترفوا بأنَّ الله هو خالقُ ذلك، ولا يُثبتون لأصنامهم شيئًا من الخلق؛ فكيف يلتقي هذا مع ادِّعائهم الإلهيَّة لأصنامهم؟! ولذلك قال الله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يُصرفون عن توحيد الله، وعن إبطال إشراكهم به ما لا يخلق شيئًا"[3].

نوعُ اللّام ودلالتها:

اللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هي الموطِّئة للقَسَم، والتّقدير: (والله لئن سألتَهم ليقولنّ)، والمراد تأكيد كون جوابهم لا يكون بغير ذلك؛ لأنّهم حقيقة يقرّون بها في أنفسهم، فالقَسَمُ هو لما سيقوله أولئك المشركون لا ما قالوه فحسب!.

القسمُ تأكيدٌ لما سيُقال لا لما قيل

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 457.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 54 - 55.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 26.

بلاغة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

عند وقْعِ السّؤال يُسارع الجواب بلا مدافعة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالجملة الشّرطيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وذلك لما في الجملة الشّرطيّة من تلازم بين الشّرط وجوابه، "وهذا الإلزام مبنيٌّ على أنهم لا يستطيعون إذا سُئلوا إلا الاعتراف؛ لأنه كذلك في الواقع، ولأن القرآن يُتلى عليهم كلَّما نزل منه شيء يتعلَّق بهم ويتلوه المسلمون على مسامعهم، فلو استطاعوا إنكار ما نُسب إليهم لصَدَعوا به"[1].

نكتة استعمال أداة (إن):

احتمال الوقوع لا ينفي الوقوع

آثر النّظم الكريم استعمال أداة الشّرط (إن) دون (إذا) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ لأنَّه ليس المقصود حتميَّة السّؤال، بل إيراده على وجه احتمال الوقوع، أي: إن حصل منك وسألتهم فهذا جوابهم، وهذا لا ينفي الوقوع كذلك، فالاحتمالان واردان.

تعيينُ مرجع الضَّمير:

توجيه السّؤال لإلزام المعاندين وإسماع المؤمنين

جاء التَّعبير باستعمال ضمير المخاطب والغائب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾، والمراد بالمخاطب النّبيّ ﷺ، والمراد بالضّمير الغائب المشركون؛ لأنّ سؤال المؤمنين عن ذلك وبيان معرفتهم بالجواب لا ينبني عليه شيء، أمّا سؤال المشركين وبيان جوابهم سيُظهِر تناقضَهُم بين الاعتقادِ والسُّلوك، هذا من حيث المعنى، ومن حيث السّياق فإن لحاق الآية جاء فيه قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وهذا لا يكون إلا للمشركين.

دلالة الاستفهام بـ﴿مَّنْ﴾:

جاء استعمال اسم الاستفهام ﴿مَّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 26.

سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وذلك للسّؤال عن ذات الخالق، فالمراد به تعيين الخالق وتقرير الفاعل[1].

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

تقريرُ المُنكرِ بالسُّؤالِ أبلغُ من مجرَّدِ الإخبار

استعمل النّظم الجليل أسلوب الاستفهام: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ للتّقرير؛ وذلك لأنّ السّائل يعرف أنّ المسؤولين يعرفون الجواب، وأنّهم لا ينكرونه بحال، فجيء به تقريرًا لهم وإلزامًا لهم بالاعتراف على بطلان آلهتهم وأصنامهم؛ ليكون توطئةً إلى التّوحيد، والاعتراف بالحقِّ.

نكتة تقديم السّماوات على الأرض:

شأن خلق السّماوات أعلى رتبة من خلق الأرض

قدّم النّظم الجليل ذِكر السّماوات على الأرض في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ وذلك لأنّ خَلْقَهُما أكثَرُ إلزامًا في التّقرير من خلق الأرض، ولأنّ خلق الأرض متأخّر عن خلق السّماوات[2]، فالسّماوات يشاهدها المشركون بأعينهم، والأرض يعيشون عليها بذواتهم، فكلاهما يُلزِم الكافرين بالاعتراف بكون اللّهِ تعالى خالقَهُما.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾:

معرفةُ حقائق الأشياء يزيد من الإنكار على العارفِ حين جحوده

عرّف النّظم الجليل لفظَي السّماوات والأرض بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهي دالّةٌ على العهد، والعهد ذهنيٌّ لحضور الأرض والسماوات في الذّهن عند ذكرهما، فهم يعلمون المسؤول عنه، ويستحضرون عظمته وكبير شأنه، وهو ممّا يزيد من الإنكار عليهم؛ فإنَّ العالم بالشّيءِ ليس كالجاهل به.

بلاغة العطف بين الأفعال:

عطف النّظم الجليل فعل التّسخير على الخلق في قوله جلّ

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 234.
(2) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 234.

شأنه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ وذلك لأنّ التّقرير يكون بما ذكر، فالسّماوات والأرض لا يُنكرها ناكر، وتسخير الشّمس والقمر ظاهر لكلّ باصر، فكان الجمع بينهنّ أبلغ في التّقرير، فبدأ بالخلق باعتباره الأصل والقاعدة، ثم ذكر التّسخير باعتباره المظهر الأعظم في حياة البشر، فعليه مدار الزمان والمكان، ومشاهدة عجيب الأكوان.

الخلق أصل الأمر، والتّسخير المظهر الأكبر

سرّ التّعبير بفعل التّسخير دون الخلق:

آثر النّظم الكريم استعمال لفظ التّسخير دون الخَلْقِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ فلم يقل: (وخلق الشّمس والقمر)؛ كما ذكر فعل الخلق مع السّماوات والأرض؛ وذلك لأنّ الآية والحكمة حاصلة بخلق السّماوات والأرض وإيجادهما، أمّا الشّمس والقمر فلا تحصل حكمة بمجرّد خلقهما، فإنّهما لو كانا بحيث يلبثان في موضع واحد بلا حركة لما حصل اللّيل والنّهار، ولا الصّيف ولا الشّتاء، فالحكمة كائنة في تحريكهما وتسخيرهما[1]، فذكر مع كلِّ فعلٍ ما يناسبه من المخلوقات، فجمع بين الأصل الثابت، والمظهر المتحرك؛ لبيان وظيفةِ كلِّ مخلوقٍ، وأنَّ هذا الكون لم يكن خاليًا عن الحكمة والعظمة.

الحكمة في السّماء والأرض الإيجاد، وفي الشّمس والقمر التّسخير

توجيه المخصوص بالذكر:

خصَّ النظم الكريم تسخير الشمس والقمر بالذِّكْرِ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ من بين مظاهر خلق السماوات والأرض؛ لما في حركتهما من دلالة على عظيم القدرة، مع ما في ذلك من المِنَّةِ على الناس إذ ناط بحركتهما أوقات الليل والنهار وضبط الشهور والفصول[2]، فذِكْرُ المنَّةِ في سياق الاستدلال أجْمَعُ لخطاب العقل وتحريك العاطفة.

الخطاب البليغ ما جمع بين إقناع العقل وإشباع العاطفة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 73.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 26.

فعل التّسخير بين الحقيقة والمجاز:

تسخيرُ الشّمس والقمر إلجاءٌ لهما للعملِ بأمر الله تعالى

استعمل النّظم الكريم فعل التّسخير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾، ويُستعمل التّسخير مجازًا في تصريف الشيء غير ذي الإرادة في عمل عجيب أو عظيم من شأنه أن يصعب استعماله فيه، بحيلةٍ أو إلهامٍ تصريفًا يصيِّره من خصائصه وشؤونه، كتسخير الفُلْكِ للمَخْرِ في البحر بالريح، وتسخيرِ السحاب للأمطار، وتسخير النهار للعمل، والليل للسُّكون؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: 13] باعتبار هذا المجاز على تفاوت في قوّة العلاقة، فقوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: 54] أطلق التسخير فيه مجازًا على جعلها خاضعةً للنظام الذي خلقها الله عليه بدون تغيير، مع أنَّ شأن عِظَمِها أن لا يستطيع غيرُه تعالى وضْعَها على نظام محدود منضبط[1].

وبعد أن قرَّر ابن عاشور هذا الكلام في آية الأعراف وأحال عليه في هذا الموضع الذي نحن فيه، مال هنا إلى جعل التَّسخير محمولًا على الحقيقة! فقال: "وتسخير الشيء: إلجاؤه لعمل شديد، وأحسب أنه حقيقة سواء كان المُسَخَّر - بالفتح - ذا إرادة أم كان جمادًا، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: 54] في سورة الأعراف"[2]، وما قرَّره في سورة الأعراف هو الأليقُ بكلام البيانيّين، وما ذَهَب إليه هنا هو الأليقُ بالألفاظ الدّالّة على الغيبيّات؛ فإنَّ تسخير الشمس والقمر على الحقيقةِ من الغيبيّات التي لا نعلم عن حقائقها إلّا ما جاء به الخبر، وأما مظاهر التَّسخير فهي من المشاهدات التي لا تغيب عن ذي بصر.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 168.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 26.

معنى تعريف ﴿ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾:

تعريف لفظَي الشّمس والقمر بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ للعهد، والعهد ذهنيٌّ لحضور الشّمس والقمر في الذّهن عند ذكرهما.

علّة تقديم الشّمس على القمر:

الأصول مقدَّمة على الفروع

قدّم النّظم الجليل ذكر الشّمس على القمر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ وذلك لأنّها الأصل في الضّوء والحرارة التي تبعث الحياة في الأرض، فهي أكثر فائدة للأرض وأظهر نفعًا، والقمر تابعٌ لها في النّفع والانتفاع.

نوعُ اللّام ودلالتُها:

التّأكيد بالقسم لإثبات الأمر وتحقيقه

اللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ هي الواقعة في جواب القسم، دالّة على قَسَمٍ محذوف مقدَّرٍ، والتّقدير: واللّه ليقولنّ[1]، وفائدة ذلك الدّلالة على أنّ قولهم ذلك كائن لا محالة، حتّى إنّه ليُقسم عليه، والتّأكيد بالقسم لإثبات الأمر وتحقيقه.

نكتة تتابع المؤكّدات:

الحقّ ظاهر معترَف به ولا سبيل إلى إنكاره

أكّد النّظم الجليل الجملة الفعليّة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ بالقسم وبنون التّأكيد للدّلالة على تحقّق قولهم، وأنّهم لا سبيل لهم إلى إنكار الجواب ولا إلى التّردّد فيه؛ لقوّته وظهوره[2].

الموقع النّحويّ لقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

ما أقسم عليه وأكّد وقوعه اعترافهم بوحدانية الخالق

عبّر النّظم الجليل بالجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ لبيان ما أقسم عليه، فالجملة جواب القسم[3]، ولهذه الجملة فائدة نحوية أخرى وهي الدّلالة على جواب الشّرط المحذوف، فاكتفى النّظم بجواب القسم واستغنى عن جواب الشّرط لظهور المراد.

(1) الدّعاس، إعراب القرآن: 3/ 6.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 46.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 14.

نوعُ الفاء ودلالتها:

الـفـاء إمـا تفريعيّة سببيّة أو فصيحة

افتتح النّظم الجليل الجملة الاستفهاميّة بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، وهي دالّةٌ هنا: إمّا على التّفريع والسّببيّة، فالاستفهام الإنكاريّ متفرّع عن الكلام السّابق، ومسبَّبٌ عنه[1]، فانصرافهم عن التّوحيد - بعد الإقرار بكون الله تعالى هو الخالق - يدعو للإنكار.

وإمّا أنها فصيحة[2]، لأنَّها تُفْصِح عن جملة شرطيّة محذوفة، والتقدير: (إن صَرَفَهُم الهوى فأنّى يؤفكون)[3]، أو: إن كان قولهم اعترافًا بالحقِّ ثم يُصرّون على خلافه؛ فأنى يُصرَفون.

بلاغة الاستفهام بأداة (أنّى):

الانـصـراف عن التّوحيد أعجبُ فـعـل وأغـرب سلوك

عبّر النّظم الجليل باسم الاستفهام (أنّى) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، وهي تستعمل للدّلالة على معنيين في الاستفهام، فتكون بمعنى كيف، ومعنى أين، وهي صالحة لكليهما هنا، والمراد بالاستفهام الإنكار والتّعجيب من حالهم، أي "فكيفَ يُصرفون عن الإقرارِ بتفرُّدِه تعالى في الإلهيَّة مع إقرارِهم بتفرُّدِه تعالى فيما ذكر من الخلق والتَّسخيرِ"[4].

دلالة التّعبير بمفردة ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ مادّة وصيغة:

الانـصـرافُ عن مـوجـب الـحـقّ شيـمـةُ الباطل وسمةُ العاطل

عبّر النّظم الجليل بفعل الإفك في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وذلك للدّلالة على أنّهم ينصرفون عمّا ينبغي أن يكونوا عليه، فهو انصراف باطل، ويكون ذلك بالانصراف عن الحقّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[5]، وقد عبّر عن ذلك بصيغة المبنيّ للمفعول للدّلالة على أنّهم ينصرفون بفعل أي صارف يدعوهم لترك الحقِّ واتّباع

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 235.
(2) الدّعاس، إعراب القرآن: 3/ 6.
(3) صافي، الجدول: 21/ 14.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 46.
(5) الراغب، المفردات: (أفك).

الباطل[1]، تعبيرًا عن خفّتهم وانقطاعهم عن الأصول، والتّعبير بالفعل المضارع للإشارة إلى أنّهم يفعلون ذلك باستمرارٍ ودوام.

نكتةُ حذْفِ متعلّق فعل ﴿يُؤْفَكُونَ﴾:

بـيـانُ عـمـوم الانـصـرافِ عن كلّ حقٍّ وصلاح

حذف النّظم الجليل متعلّق الفعل في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فلم يبيّن عن أيّ شيء يؤفكون؛ وذلك للدّلالة على عموم الصرف عن الخير، فهم يُصرفون عن الاعتقاد الحقّ إلى الباطل، وعن الصّدق في المقال إلى الكذب، وعن الجميل في الفعل إلى القبيح.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإفك والصرف:

الصّرف تحويل وردّ، والإفك عن الشّيءِ انصراف عمّا ينبغي أن يكون عليه

الصّرف: يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ، وهو: ردّ الشّيء من حالة إلى حالة[2]، يُقال: صَرَفْتُ القَوْمَ صَرْفًا وانْصَرَفوا، إذا رَجَعْتَهُمْ فرَجَعوا، يقال: صرفه عن كذا: إذا عَدَلَ به عنه ونحّاه[3]، أمّا يُؤفكون: فهو صرف الشّيء عن جهته[4]، قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: 9]؛ أي يُصْرَفُ عَنِ الإيمان مَنْ صُرِف[5]، والإفك: كلُّ مصروف عن وجهه الذي يحقّ أن يكون عليه، وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: 30] أي: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[6]، فالصَّرْفُ تحوّل عامّ، بمعنًى الرّدّ والإرجاع، يُستعمل للردّ العامّ ولا يتعلّق بالتّوجه، أمّا الإفك فهو صَرْفٌ عن الوجه الذي ينبغي أن يكونوا عليه، وعبّر في الآيةِ بالإفك؛ لأنّهم انصرفوا عن التّوحيد مع قيام الأدلّة عليه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 471.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (صرف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(6) الراغب، المفردات: (أفك).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»